

نشأة علم التفسير

القرآن الكريم هو منهج الله- تعالى- للناس في كل ما يتعلق بأمور دينهم ودنياهم، ولذلك جلس النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، ليفصل لهم ما أجمل من القرآن، وليزيل عن أذهانهم ما علق بها من لبس، وكان الصحابة حريصين كل الحرص على ملازمة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وجدنا بعضهم كان يتتأوب مع صاحبه حضور المجلس النبوي إذا لم يستطع الملازمة.

فلما انتقل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الرَّفِيقِ
الْأَعْلَى قَبِضَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِلنَّاسِ صَحَابَتَهُ
الْكَرَامَ، يَفْسِرُونَ لِلنَّاسِ مَا أَحْتَاجُوا إِلَيْهِ.
فَلَمَّا جَاءَ عَصْرُ التَّابِعِينَ قَبِضَ اللهُ مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُ
الْعِلْمَ عَلَى أَيْدِي الْمَفْسِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، حَتَّى
صَارُوا عُلَمَاءَ نَابِغِينَ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْتَى فِي
وَجُودِ أَسْتَاذِهِ بِأَمْرٍ مِنْهُ. وَكَانَ لِلتَّابِعِينَ مَقُومَاتٌ
جَيِّدَةٌ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا فِي تَفْسِيرِهِمْ، وَقَدْ أُنتِجَ
لَنَا التَّابِعُونَ كَمَا عَظِيمًا مِنَ التَّفْسِيرِ.

وظل التفسير يتناقل شفهيًا، حتى دخل عصر
التدوين، ثم دخل التفسير في أطوار أخرى من
عصر إلى عصر، تتلون ألوانه بتلون اتجاهات
أصحابها، حتى وصل إلى عصرنا هذا، وقد
أخذ من كل لون، ولا غرو في ذلك، فهو ماسة
ربانية، ينظر كل منهم إلى زاوية من زواياها،
فتستهويه، ولا يكاد يصرف نظره عنها، وهو
البحر الذي لا ساحل له ولا قرار.

تدوين التفسير:

التدوين في بداية الأمر كان خاصا بالقرآن الكريم،
دون الحديث النبوي، حتى لا يلتبس شيء من
القرآن بغيره، قال صلى الله عليه وسلم: «لا تكتبوا
عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه».
فلما أمن اللبس أباح النبي صلى الله عليه وسلم
كتابة الحديث أيضا، ويدل لذلك قوله صلى الله عليه
وسلم يوم فتح مكة، لما طلب أبو شاة أن يكتب له
خطبته: «اكتبوا لأبي شاة».

مرحلة التدوين

أولاً: إن تدوين التفسير كعلم مستقل عن الحديث،
وليس كباب من أبوابه بدأ في مرحلة مبكرة، على
أيدى التابعين، الذين جمعوا قدرا كبيرا منه على
أيدى الصحابة، ومما يدل على ذلك: ما روي عن
مجاهد قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث
عرضات، أقف عند كل آية أسأله، فيم نزلت؟

ثانياً: وبناء على ما سبق، فإن ما فعله الخليفة
العادل عمر بن عبد العزيز، حينما أمر واليه على
المدينة، أبا بكر بن حزم (سنة مائة)، بجمع
الحديث، لا يعتبر الحلقة الأولى لتدوين التفسير،
حتى وإن كان بابا من أبواب الحديث، فالتدوين
للتفسير - وكعلم مستقل أيضا - كان سابقا لخلافة
عمر بن عبد العزيز - رحمه الله.

ثالثاً: ثم تأتي مرحلة التدوين التي كتب فيها
ابن جريج، في التفسير ثلاثة أجزاء كبار، عن
ابن عباس رضي الله عنهما.

رابعاً: ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة أقرب
إلى الشمولية لمعظم آيات القرآن الكريم، حيث
كتب الفراء (المتوفى سنة 207 هـ) كتاباً في
معانى القرآن، كما ظهر تفسير ليحيى بن سلام
المتوفى سنة 200 هـ.

خامساً: وما زال التفسير ينمو ويزدهر، حتى وصل إلى مرحلة الاستقصاء لكل آية من آياته، وظهر ذلك على أيدي مجموعة من العلماء، من أشهرهم: ابن جرير الطبري المتوفى سنة 310 هـ، وتفسيره يعتبر أقدم تفسير وصل إلينا، وابن أبي حاتم المتوفى سنة 327 هـ، وابن مردويه المتوفى سنة 410 هـ، وغيرهم من الأئمة الفضلاء.

أشهر المفسرين من الصحابة:

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وابن مسعود وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وكان أكثر المفسرين من الخلفاء الأربعة علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم عنه .

وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير اشتهر
بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم، معتمدين
على المصادر التي جاءت في العصر السابق،
بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر، ولما
اتسعت الفتوحات الإسلامية وانتقل كثير من أعلام
الصحابة إلى الأمصار المفتوحة، ولدى كل واحد
منهم علم غزير، تتلمذ على أيديهم كثير من
التابعين ليأخذوا من علمهم ولينهلوا من معارفهم،
ونشأت مدارس متعددة.

مدارس التفسير

ظهرت مدارس التفسير في عهد التابعين
وكان عددها ثلاث مدارس تنسب كل واحدة
منها إلى صحابي من الصحابة وهي:

1. مدرسة مكة المكرمة: نشأت على يد ابن

عباس رضي الله عنه وهو ترجمان القرآن الذي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل» وقد اشتهر من تلاميذه كثير منهم: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، وطاووس بن كيسان، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم مع اختلاف في الرواية عن ابن عباس في القلة والكثرة.

2. مدرسة المدينة: في المدينة المنورة

اشتهر أبي بن كعب بالتفسير أكثر من غيره، وكان ممن أخذ عنه واشتهر من تلاميذه بواسطة أو بدون واسطة كثير، وعلى رأسهم : محمد بن كعب القرظي، وأبو العالية الرياحي، وزيد بن أسلم وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

3. مدرسة العراق: وفي العراق نشأت

مدرسة ابن مسعود ، وكانت كما قال عنها العلماء (نواة مدرسة أهل الرأي) وعرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين اشتهر منهم: علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، ومرة الهمذاني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي .

التفسير في مرحلة المصنفات الجامعة:

ازدادت مادة التفسير بعد عصر التابعين، وبدأت تظهر المصنفات التي جمع مؤلفوها أقوال الصحابة والتابعين في التفسير، وقد روي أن الإمام مالك بن أنس (ت 179 هـ) هو أول من صنف تفسير القرآن على طريقة الموطأ، ثم تبعه الأئمة، فقلّ حافظ إلا وله تفسير مسند».

وتحدث **السيوطي** عن حركة التأليف في مجال
التفسير بعد عصر التابعين، فقال : «ثم بعد هذه
الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة
والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة (ت 198 هـ)،
ووكيع بن الجراح (ت 197 هـ)، وشعبة بن
الحجاج (ت 160 هـ)، ويزيد بن هارون (ت 206
هـ)، وعبد الرزاق (ت 211 هـ)، وعبد بن حميد
(ت 249 هـ)، وأبي بكر بن أبي شيبة
(ت 235 هـ)، وآخرين.

وتطورت الحياة العلمية في الأمة الإسلامية
تطورا سريعا، وتنوعت المعارف والثقافات،
وبرزت المذاهب الفقهية، والاتجاهات
الفكرية، وانعكس ذلك على تفسير القرآن
الكريم، فتأثرت التفاسير بثقافة المفسر
وتوجهاته الفكرية، فتنوعت تبعاً لذلك.

ثم أَلّف في التفسير خلائق! فاختصروا
الأسانيد، ونقلوا الأقوال بترأ، فدخل من هنا
الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل. ثم صار كل
من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله
شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده
ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما
ورد عن السلف الصالح.

أسئلة وتطبيقات

1: تحدث عن نشأة علم التفسير بإيجاز.

2: لقد كان الصحابة يعتمدون على أمور ثلاثة في تفسيرهم. فما هي هذه الأمور؟

3: اذكر الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير.

4: من هم مشاهير المفسرين من التابعين؟

5: من الذي اشتهر بالتفسير في المدينة؟

6: من الذي اشتهر بالتفسير في مكة المكرمة؟